حياة دمشق الحضارية في قرن من الزمن

سكة التراموای.. طريق الحداثة مرّ بدمشق ذاكرة أمة ومدينة

سامي مروان مبيض: مع القضاء على تراموای العاصمة فقدت دمشق شريان حياتها

إسماعيل مروة

حين يكتب أديب بوزن أمين معلوف.. من مآسي مشرقنا أن الحداثة الاجتماعية والفكرية، التي تبدو في يومنا هذا بعيدة المنال، بدأت تسري قبل أجيال في عروق أبنائه وبناته، بفضل رواد مبدعين كان في وسعهم أن يحولوا هذه البقعة من العالم إلى منارة حقيقية للتقدم والحضارة.. حين يكتب أمين المعلوف، فهذا يعني أننا أمام شيء مختلف استحق من المعلوف أن يتحدث عنه، وحين نعرف أن الكلمات هذه إنما كتبت عن كتاب المؤرخ الصديق الدكتور سامي مروان مبيض، فهذا يشكل حافزاً للقراءة.. فماذا في هذا الكتاب؟

التراموای والحداثة

هذا الكتاب هو الكتاب الثامن في سلسلة كتب مبيض بالعربية، فقد قدم من خلال دار الريس خمسة كتب هذا سادسها، وقدم كتابين مهمين لم يأت على ذكرهما في قائمة كتبه هما (الشهبندر ورسالته المفقودة ٢٠١٧ المنشور في دار البشائر، ومدحة باشا ٢٠٢٢ دار بستان هشام- دمشق).

وهذه السلسلة المتكاملة تدخل في إطار التوثيق الذي أخذ به نفسه الدكتور مبيض في رحلته الكتابية، وبحكم اطلاعي على هذه الكتب، فإنها جميعها تتميز بالجدة، ويطرح د. مبيض في إطار التوثيق قضايا إشكالية مهمة، والكثير منها يطرح لأول مرة، فالكاتب أخلص حياته للوثيقة والاحتفاظ بها وأرشفتها، وأزعم أن هذا الكتاب هو من أهم كتبه، ومن أخطرها وأكثرها جرأة، لأن المؤرخ يظهر ميله، ومحاكمته للمجريات تبدو واضحة للعيان أكثر من أي كتاب آخر.. وقد أطلق الكاتب على كتابه عنواناً مراوغاً (سكة التراموای) ولكنه أطلق عنواناً فرعياً شارحاً (طريق الحداثة مر بدمشق) فقد يتبادر إلى الأذهان أن سكة التراموای هي الغاية، ولكن العنوان المراوغ الذكي أدى ما أراده مبيض ببراعة، فكأن المؤلف يصحب قارئه في عربة التراموای لينتقل به من محطة إلى أخرى في تاريخ الحداثة والتحدث في سورية ودمشق منذ البدايات إلى اليوم الحاضر.

تنوع روافد الحداثة

تحدث عن الاستعمار العثماني والتحولات السياسية والاستعمار الفرنسي والتقلبات السياسية والاجتماعية والعمرانية، وعن الظروف التي أجبرت الأتراك على اتخاذ خطوات إصلاحية تستجيب لرواد النهضة مع الدستور العثماني وما تلاه، والسماح للجمعيات السياسية فترة، ومن رحم هذه الفترة خرجت الأفكار السياسية والشخصيات السياسية السورية «انتقال المجتمع السوري نحو الحداثة بدأ فعلياً مع التنظيمات العثمانية التي أسست لطبقة وسطى من المجتمع، أصبح أبناؤها أداة التغيير والتطوير في بلادهم، جاءت التنظيمات رداً على مطالب الدول الأوروبية لعصرنة الدولة العثمانية».. ومن المقدمة يفرد مبيض أوراقه بغير تحفظ ليظهر مكونات الكتاب التوثيقي والنقدي الذي يقدمه «العنوان العريض لهذا الكتاب هو الحداثة ومعركة التغيير في المجتمع السوري، شُنت هذه المعركة عمودياً وأفقياً على ثلاث جبهات بين ثلاثة مكونات اجتماعية، الشباب المتعلم وآباؤهم المحافظون، الرجل والمرأة، العلمانيون ورجال الدين، تنوعت منصات الصراع، وكثرت أمكنته: في الأزقة والحارات، داخل المنازل، في المساجد، في جامعة دمشق، على خشبات المسارح..».

فمع أن الكتاب العريض عنوانها تستر بالملاءة البنت من سنتها العاشرة، شهدت يوم الجلاء بنات السادسة عشرة وما فوقها يمشين في العرض بادية أفخاذهن، تهتز نهودهن في صدورهن، تكاد تأكلها النظرات الفاسقة».

وبهذا الرصد قدم مبيض الصراع الواضح وغير الخفي بين التيار العلماني والتيار الديني، والذي غالباً ما كانت الكلمة النهائية فيه للتيار الديني ولو بعد وقت مؤجل!

عبد الرحمن الشهبندر

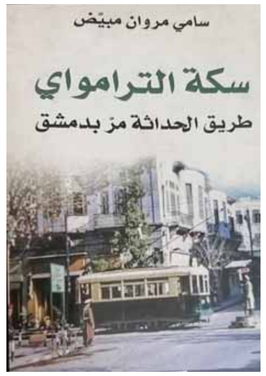

نازك العابد

بين العلمانيين ورجال الدين

من نافذة التراموای الذي يجوب دمشق من أواخر العهد العثماني إلى المرحلة الفرنسية إلى العهد الوطني، وإلى زمن قريب كان مبيض مرافقاً وناقداً للتيارين العلماني والديني ودورهما، فالحياة الجديدة في دمشق والأحياء الجديدة أخرجت الجيل الدمشقي الجديد، وبدأت النقاشات على خلفية المنتديات والمجالس، ومن عام ١٩١٩، وكانت النقاشات حادة وجادة «دار نقاش حاد بينهم وبين الثوار الشباب المنادين بإسقاط البسملة من النصوص الحكومية، بهدف إبعاد الدين عن السياسة والتشريع.. وسجل في هذا النقاش ما دار من صدام.. ويتابع مع دخول فيصل إلى دمشق ويسجل حذره من الشارع الديني.. لم ينقطع فيصل يوماً عن هذا المجتمع المحافظ، ولكنه لم يجاهر بأفكاره الغربية، خوفاً من انتقاداتهم.. وعندما افتتح متحف دمشق بتشجيع من الملك فيصل وضعت فيه المنحوتات والتماثيل، فاعترض الشيخ بدر الدين الحسني، ولم يمانع بعد النقاش، لكن علي الطنطاوي ردّ على عبد القادر المغربي «كيف يتحدث الحسني بهذه الخدعة المضحكة التي خدعته بها وتفرّ هذه الأصنام وهذه التماثيل؟ اتق الله يا أستاذ، وفي اغتيال عبد الرحمن الشهبندر ينقل مبيض من الوثائق.. دخل شاب متدين من باب سريجة على الشيخ مكي الكتاني نائب رئيس رابطة العلماء المسلمين، وسأله: ما جزاء الخائن في الإسلام؟ ودون تردد أجابه الشيخ الكتاني: القتل: اتخذت هذه الفتوى الشرعية لتصفية الدكتور عبد الرحمن الشهبندر».

ومع دخول كرة القدم ١٩١٠ يقول مبيض «لكن هذه اللعبة المستوردة لم تعجب الكثير من رجال الدين، نظراً لسراويل اللاعبين القصيرة، وقد اعترضوا على انتشارها السريع بين شباب دمشق قائلين: إنها تلهي اليافعين عن الصلاة والعبادة» وعن وجود الإخوان المسلمين في البرلمان ودورهم يقول: «مصطفى السباعي أحد مريدي حسن البنا، وكان يفرق بين الزعماء والقادة، ويعتبر أن الزعماء هم من يعمل في السياسة، أما القادة فهم علماء الدين حصراً».

وعن مشاركة المرأة حتى الصغيرة في عيد الجلاء يذكر مبيض من مذكرات علي الطنطاوي، الجزء الخامس، «كان أن دمشق التي عرفناها تستر بالملاءة البنت من سنتها العاشرة، شهدت يوم الجلاء بنات السادسة عشرة وما فوقها يمشين في العرض بادية أفخاذهن، تهتز نهودهن في صدورهن، تكاد تأكلها النظرات الفاسقة».

المرأة ودورها

قدّم المؤلف صورة وافية عن المرأة.. وهي ليست كما وصفها علي الطنطاوي في المقطع السابق، وإنما كانت امرأة مختلفة، مشاركة في الحياة بكل تفاصيلها، طموحة، أن تقدم نفسها ووطنها كما يجب، فزوجة الملك فيصل كما يصف المؤلف بهرت بالحرية وشخصية المرأة السورية والدمشقية «فتاجأت الأميرة بلباس ضيفاتها، فجميعهن دخلن سافرت الرأس والوجه، على الرغم من وجود الحرّاس والخدم في القصر» هذا مع أنه يشير قبل صفحة بأن العهد العثماني فرض المالية على السيدات جميعاً المسلمات والمسيحيات واليهوديات والأجنبيات عن البلد! ويتابع «أعجبت الأميرة حزيمة بدرجة التحرر التي شهدتها في سورية، وصارت تشارك في استقبالات النسوان، حيث خصص لها الثلاثاء الأول من كل شهر، لتجتمع سيدات دمشق في دارها الكائنة في منطقة العفيف».

ويتحدث عن نازك العابد التي ربطتها علاقة صداقة قوية مع ماري عجمي واشتركتا في الصحافة معاً حتى عام ١٩٢٠ مع الانتداب الفرنسي ويصور المؤلف مشهد نازك العابد «نزلت إلى ميدان القتال مع وزير الحربية يوسف العظمة في معركة ميسلون يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠، جالت شوارع العاصمة مع الجنود وهي ترتدي بزة عسكرية».

ويذكر المؤلف أمراً جديراً بالانتباه «هاجمها بعض المتشددين من أهالي الميدان قائلين إنها عرضت مفاتنها على الناس، وكان أنفع لها أن تبقى في دارها ولا تتدخل في شؤون حربية ليست من اختصاص النساء».

ويشير المؤلف بوضوح أن هذه الحركة التنويرية النسوية كان مصدرها ومبعثها نساء الطبقة الأرستقراطية والسبب لما يملكن من قوة نفوذ ومقدرة، إضافة إلى ضعف حدة المعارضة بسبب المكانة الاجتماعية والسياسية.

«وقد ظهرت عدة سيدات في دمشق يومها، تأثرن كثيراً بماري عجمي ونازك العابد، جميعهن من الأسر الأرستقراطية القديمة، أبرزهن الشقيقتان سعاد وفرلان مردم بك، ابنتا حكمت باشا مردم بك، عضو مجلس المبعوثان العثماني».

تحدث المؤلف عن المرأة ومشاركتها ولباسها، وعن الموضة والكعب العالي، وفي مواضيع عديدة، أظهرت بما لا يقبل الشك بأن التراموای الذي مر بدمشق هو محطات حضارية وصولاً إلى حق الانتخاب والنضال والمشاركة في الحياة الإعلامية والسياسية، وصولاً إلى الفن الذي تعدد من مسرح وسينما وغير ذلك، وخاصة على يدي أبي خليل القباني، وفي كل مرحلة من المراحل كان المؤلف يتحدث عن الظاهرة التي يرقبها من التراموای، ويسجل المعارضة المجتمعية المتمثلة دائماً في رجال الدين الذين يحاولون في كل مرة أن يقفوا ضد المرأة وحقوقها، الفن وممارسته، ورأينا الأمر يصل بهم إلى كرة القدم، وهناك إشارة مهمة عمد المؤلف إلى ذكرها تتعلق بالمناير فقد كان المشايخ يلجؤون إلى المنابر عندما تعجزهم الحيلة، وقد ذكر بالوقائع أحداثاً عديدة تدخل فيها رجال الدين من خلال جمعياتهم إلى مراتب عليا لمناقشة أمور فرضها على المجتمع، مثل المرأة والسينما، حتى وصل الأمر بالشيخ علي الدقر ليطلب تراموای خاص بالنساء لمنع الاختلاط.

وللرقيب مقصه ويتعطل التراموای العنوان كان موارياً لكنه كان حقيقياً ومدروساً ويظهر ذلك عندما يقول المؤلف «وجاءت الطامة الكبرى في زمن الانفصال، بعد الإطاحة بالجمهورية العربية المتحدة عندما أزيل تراموای دمشق بشكل كامل، الذي يفضله كانت قد ظهرت حياة جديدة للمدينة وأهلها قبل خمسين سنة».

فالتراموای لم يكن وسيلة نقل وحسب، بل كان الوجه الحضاري الكبير لدمشق، ولابد من توجيه الشكر للمؤلف على لفتات ماعرفناها لولاه، فرجال الدين من مسلمين ومسيحيين كانوا معاً في وجه التراموای، ويوسف العظمة في معركة ميسلون يوم ٢٤ تموز ١٩٢٠، جالت شوارع العاصمة مع الجنود وهي ترتدي بزة عسكرية».

ويذكر المؤلف أمراً جديراً بالانتباه «هاجمها بعض المتشددين من أهالي الميدان قائلين إنها عرضت مفاتنها على الناس، وكان أنفع لها أن تبقى في دارها ولا تتدخل في شؤون حربية ليست من اختصاص النساء».

ويشير المؤلف بوضوح أن هذه الحركة التنويرية النسوية كان مصدرها ومبعثها نساء الطبقة الأرستقراطية والسبب لما يملكن من قوة نفوذ ومقدرة، إضافة إلى ضعف حدة المعارضة بسبب المكانة الاجتماعية والسياسية.

«وقد ظهرت عدة سيدات في دمشق يومها، تأثرن كثيراً بماري عجمي ونازك العابد، جميعهن من الأسر الأرستقراطية القديمة، أبرزهن الشقيقتان سعاد وفرلان مردم بك، ابنتا حكمت باشا مردم بك، عضو مجلس المبعوثان العثماني».

تحدث المؤلف عن المرأة ومشاركتها ولباسها، وعن الموضة والكعب العالي، وفي مواضيع عديدة، أظهرت بما لا يقبل الشك بأن التراموای الذي مر بدمشق هو محطات حضارية وصولاً إلى حق الانتخاب والنضال والمشاركة في الحياة الإعلامية والسياسية، وصولاً إلى الفن الذي تعدد من مسرح وسينما وغير ذلك، وخاصة على يدي أبي خليل القباني، وفي كل مرحلة من المراحل كان المؤلف يتحدث عن الظاهرة التي يرقبها من التراموای، ويسجل المعارضة المجتمعية

«معرض التخرج»... مشاريع تحمل روح الشباب وشغفهم في التشكيل

سارة سلامة

افتتح في صالة الشعب معرض مشاريع خريجي قسم التصوير في كلية الفنون الجميلة، المعرض نظمه اتحاد الفنانين التشكيليين في سورية بالتعاون مع كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق، مدارس متعددة قدمها الطلاب ورؤى مختلفة نظمها كل بأسلوبه تعبر عن قضايا مجتمعية وحالات نفسية وصراعات تحاكي كلاً منا.

اليوم يزدهي الطلاب في معرضهم الأول مغمورين بالأمل ويسكنهم الشغف ليصنعوا حلماً لطالما بذلوا من أجله الصعاب.

تنوّع المواضيع

وقال رئيس قسم التصوير في كلية الفنون الجميلة الدكتور سائد سلوم: إن «مشاريع تخرّج الطلاب هي باكورة أعمالهم التي تفتح المجال أمام تفكير الطالب وتطرح تساؤلاً حول كيفية بدء الحياة العملية، معتبراً أنها النقطة الأهم لاستقبال التشكيلي المواضيع بشكل شخصي ويتفاعل معها ويعاملها حسباً وعقلياً للوصول إلى عمل فني يحمل الأكاديمية وبصمة الفنان الخاصة، ما ينعكس إيجاباً على تنوّع المواضيع».

فرصة حقيقية

وبين أمين سر اتحاد الفنانين التشكيليين وعلى هامش المعرض التقينا عدداً من الطلاب المشاركين والبداية كانت مع علي مجر الذي قال عن المعرض: «هو بادرة مهمة تحدث كل عام للخريجين حتى تتعرف الناس على أعمالهم ويضعوا بصمتهم في الساحة التشكيلية، وهذا العام هناك شيء مختلف لأن الكلية كانت هي الراعية للمعرض، وعن فكرة مشاركتي فهي بالبداية كانت أننا نحاول البحث عن مكان يعطينا الأمان والاستقرار المستمر. وعبرت عن ذلك من خلال تشكيل الحالة والإحساس بالأمان والروحانية، والمعرض اليوم مهم وله جمهور مختلف عن جمهور الكلية، وبهذا المجال لا نستطيع أن نتوقع ما سيحدث لاحقاً لكن في النهاية أحلم أنني لا أحتاج للحظة لأبعد عن هذا المكان ولو اشتغلت شغلاً آخر، لكن الرسم عندي كطفل أحتاج لأنميه باستمرار ويشغلني في كافة مراحل حياتي».

بصمات خاصة

بينما قالت الطالبة رنيم زرزر إن: «المعرض في الأساس هو فعلياً خطوة أولى لنا حتى نبين بالساحة الفنية كفنانين تشكيليين، وهو المعرض الأول لنا عملناه، وتتبع أهميته في مساعدتنا كي نتهض بشغلنا الخاص وتتعرف علينا الناس، وفي الحقيقة الأعمال التي قدمناها اليوم أغلبها أكاديمية مع بصمتنا الخاصة، ومن الممكن بالمعارض القادمة أن يكون هناك بصمات خاصة واضحة تعبر عن كل شخص فينا، وفكرة مشاركتي هي بالأساس عن الدهر وكبار السن وعن وجعهم».

مشهد من الذاكرة

فيما قالت شيرين حسين إن: «هذه المشاركة الأولى لنا بعد التخرج وهي مهمة جداً وتساعدنا كشباب كي نكون موجودين ونحقق اسماً وبصمة خاصة بنا، وفكرتي تعبر عن مشهد من الذاكرة ليس مشهداً واحداً كل منها يربطنا بشيء».

ومن جهتها بينت سولير أبو ضاهر أن: «المعرض مهم ويجب أن تتكثف المعارض التي تعنى بالشباب، وكل منا اليوم يشتغل شيئاً جديداً ومتنوعاً، ومشاركتي تعبر عن حالة نفسية عن الظروف التي تؤثر علينا بداية من الخارج، طبعا مع الزمن هذه الحالة تؤثر فينا تدريجياً للعمق».

ويستمر المعرض لغاية الـ١٥ من الشهر الحالي، في صالة الشعب ليكون شاهداً على تخرج باقة جديدة من الطلاب الذين صنعوا بتجاربهم المستحيل وتحدوا الظروف القاسية ليكونوا اليوم فنانين لهم بصمتهم في عالم التشكيل.

برجك اليوم 11/13

نجلاء قباني

الحمل

قد تكون معاناتك من التصرفات غير المنطقية ممن حولك أومن عائلتك وربما تشعر بالمرارة نتيجة إحساسك بعدم الانتماء لمحيطك أو لمن حولك.

عاطفياً: سوء تفاهم محتمل أو تحريف لبعض الكلام يجعلك تدخل نزاعات لست تحتاجها.

الثور

أنت تنطلق بدعم من الكواكب الموجودة في مكان جيد ينير دربك وتجعلك تمسك بمشاعل الحظ والإشراق فأنت مزدهر وبحيط بك أشخاص يحبونك ويسمعون نصائحك وترتب شؤونك العاطفية وصداقاتك ومعارفك.

عاطفياً: أنت تجتمع بمن حولك وتناقش مشاريع مستقبلية أفق جديد وتطلعات آتية.

الجوزاء

قد تحظى اليوم بمكسب مالي طالما تأجل، والمكسب نتيجة جهود قمت بها سابقاً ولكن يجب أن ينعكس نشاطك على حجم دخلك لذا يجب أن تخفض مصروفك للحد الأدنى.

عاطفياً: لا تضيع الوقت فقد آن الأوان لكي تفتح مجالات جديدة وتضفي الفرح على أمورك الشخصية.

السرطان

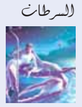

حاول أن تبدل قناعاتك وأفكارك وطريقة تفكيرك وناقش المحيط في العمل لتعطي توجهات وأوامر في اجتماعات قابلوم في اجتماعك ولتسمع آراءك فأنت أيضاً مسؤول عن محيطك مهما كان عمرك.

عاطفياً: تفرح لشعلة طارئة تبث فيك الحماسة وتجعلك مشرقاً ومتفائلاً والسبب ربما تغيرات عاطفية.

الأسد

قلبك سيدلك على ما يجري فانتبه لأنك قد تتعرض لاختبار مع بعض الأصدقاء فمن الجيد أن نعرف أصدقاءنا وخاصة بعد التجربة والتيقن لا تحزن لو صدمت ببعض الأصدقاء.

عاطفياً: أنت تخوض معارك صغيرة فقط لأنك عصبي أو مستعجل فخفف من المواجهات المحتملة.

العذراء

تعارفٌ وأناس متفائلون ومرحون وضحة وحركة ذات نتائج إيجابية فالفرص ذهبية لإعادة الهيكلة وإعادة التخطيط والتعديل واليوم للقاءات العابرة والسريعة.

عاطفياً: الظروف أكثر ودية وأنت أكثر هدوءاً وانفتاحاً على محيطك الأسري والعاطفي.

الميزان

الأمور لا تأخذ طابع المشاكل بل طابع القلق فلا تجعل قلقك يضايقك من دون أسباب مبررة وقد يحمل لك هذا اليوم بعض الاضطرابات المعنوية على أمور صحية أو عائلية.

عاطفياً: قد تصبح انفعالياً أكثر من اللازم وقد تشعر أحياناً أنك تتخبط بمفردك الأمور مهتزة صحياً واجتماعياً.

العقرب

أنت تجرب عدة حلول وتمتلك عدة خيارات للتغيرات فاختر ما تريد وبتفكير واستشارة لتواصل جهودك لسد كل الثغرات بتطوير قدراتك وعلاقاتك لتصل إلى ما تريد.

عاطفياً: مشاعرك حارة ومزدهرة في تعارف جديد مثلاً فأنت مهيأ لتمتلك محبة الآخرين.

القوس

أنت تقدر الحب والرعاية من المحيط وحتى على الصعيد الشخصي وتسعد باهتمام الناس والعائلة فحاول أن تتحدث عن مشاغلك ومشاكلك لتشعر بالراحة والتحسن.

عاطفياً: أنت تستطيع الاعتماد على صداقاتك وعلاقاتك ومن تحب وعاطفة حب تفرحك.

الجدي

إذا شعرت أحياناً بالتعب أو الضجر أو عدم الانتماء فكن إيجابياً واقترب دائماً من الأشياء التي تحبها ولا تنظر بمنظار اليوم وقل لنفسك إنني أعمل وأتحمل وأصبر لأجل الأيام الآتية.

عاطفياً: قد تكون نقاشاتك حادة أحياناً وداخلك رغبة كبيرة في التغيير سواء أكان عائلياً أم عملياً.

الدلو

مشاكلك نفسية أكثر من كونها واقعاً فعلياً فقد تتضايق من عدم المساعدة وكأن من حولك أو محيطك في إجازة وربما تضطر للدوام بدلاً منهم وعلى كل أنت تتواصل مع محيطك إلى أعمق المستويات.

عاطفياً: تستعيد ثقاؤك ونشاطك وعلاقاتك الاجتماعية ودعم الأصدقاء والمقربين وتسعدك الأخبار.

الحوت

حاول أن تبدل قناعاتك وأفكارك وطريقة تفكيرك وتناقش المحيط في العمل لتعطي توجهات وأوامر في اجتماعات قابلوم في اجتماعك ولتسمع آراءك وتستطيع بكلماتك وبجهودك أن تصل لنتيجة نهائية تسعدك فأنت تضع لنفسك قواعد لحياة جديدة.

عاطفياً: أنت تسعد لسماع اللغة المحببة واللطيفة فأنت تعيش فترة جيدة من الزيارات واللقاءات والمصالحات.